أحمد زكي أبو شادي



عقيدة الألوهة

« أجلُّ اللذات وأعلاها معرفةُ الله والنظرُ الى وجهه ، ولا يُؤْثِر عليها لذةً أخرى إلاّ مَنْ حُرِمَ هذه اللذة »

الغزالي

(ملحق بمجلة « أدبي »)

١٩٣٦

مطبعة التعاون
٣ شارع فرنسا بالاسكندرية



الى صديقي الحميم

الأديب المتصوّف

محمد لطفي جمعه المحامي

تقديراً لألمعيّته ومودّته

أبو شادي

التصوف الالهى

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً » القرآن الشريف

***

« احذروا فراسةَ المؤمن فهو ينظر بنور من الله »

« تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره »

محمد (ص)

***

« أنا الحقُّ » — الحلاّج

***

أحبك حبَّين : حبَّ الهوى وحباً لأنكَ أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذى هو حبُّ الهوى فشغلى بذكركَ عمن سواكا
وأمَّا الذى أنتَ أهلٌ له فكشفُكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاكَ لى ولكنْ لكَ الحمدُ فى ذا وذاكا

رابعة العدوية

***

فلم تهوَنى ما لم تكنْ فىَّ فانياً ولم تَفْنَ ما لم ترتسمْ فيك صورتى

ابن الفارض

***

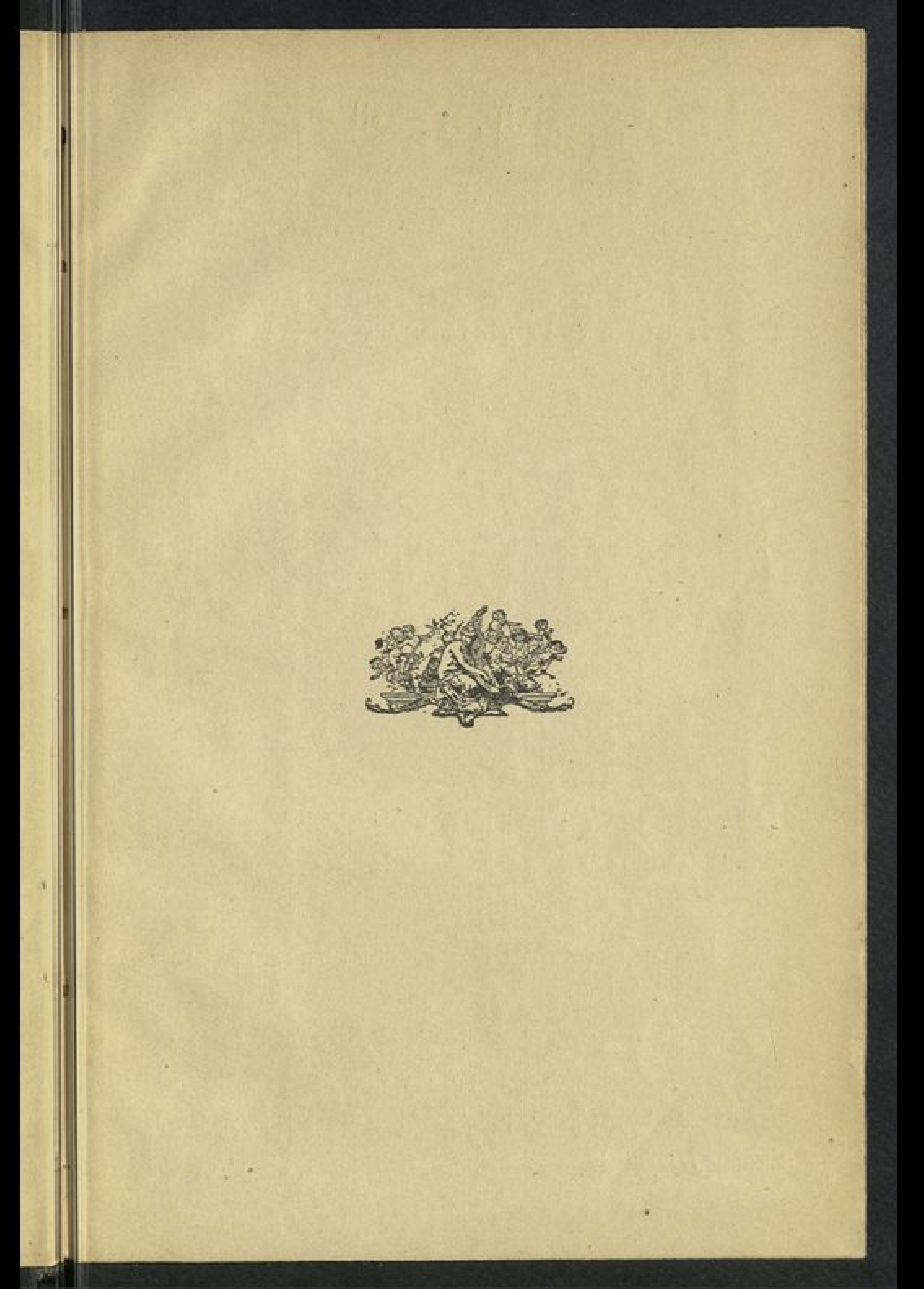
لقد كنتُ فيما مَرَّ أُنكر صاحبي إذا لم يكنْ دِينى الى دِينهِ دانِ
وقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعًى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لنيرانٍ ومَعْبَدُ طائفٍ وألواحُ توارةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحُبِّ أنَّى توَجَّهتْ ركائبهُ ، فالحبُّ دِينى وإيمانى !

محيي الدين بن العربى

***

كلُّ ذرة فى الوجود تظهر صفة من صفات الله ، لأنَّ هذه الصفات كانت قد تجلَّتْ ثم حلَّت فى هذه الذرات بمقادير مختلفة ، وهى كمرآة عنها تنعكس صفات الله . وأمّا الأنسان فهو الذى تظهر فيه تلك الصفات جميعها .

جلال الدين الرومى



عقيـــــــدة الالوهة

(محاضرة فلسفية تصوفية ألقيت في « ندوة الثقافة » بالاسكندرية
مساء الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦)

سادتي الأفاضل

أشكر لكم تشريفي بالاستماع الى هـذا الحديث الذى أوثر أن يكون فى صورة عَرْضٍ نقديّ وإنْ كنتُ أفضّل عادةَ الطريقةَ الاندماجيةَ فى بيان المذاهب الفكرية والفلسفيّة لأنها أوقعُ فى النفس . غير أنى وقد رأيتُ هذه الطريقـةَ غير منصِفةٍ لمذهبي وتفكيري نظراً لعدم اعتيـادها فى مصر ، — وإنْ كان مذهبي الدينى العلمى معروفاً — لم نجد بداً من الركون الى الطريقة النقدية فى هذا الحديث حتى يسهـلَ تبيُّنُ مالى وما لغيرى ، وإن كنتُ أخشى أنى لا أستطيع خدمة موضوع حديثى فى ذاته الخدمة الوافية التى أرمى اليها .

* * *

إنّ التعليم الطبي يا حضرات السادة يؤدّي حتماً الى شيء من الصراع مع الدين . وقد لحظتُ منذ نشأتى كثيرين من الأطباء تتزعزع عقائدهم الدينية ثم يتزعزع نهائياً إيمانهم الالـهي . ومنهم مَنْ يدّعى التوفيقَ بين العلم والدين ، ولـكن اختبار دعواهم يُظهر عجزَهم عن هذا التوفيق ، وما سبب ذلك إلاّ ضعف إيمانهم الفطرى وسطحية نظراتهم وفقدان الشجاعة الكافية لايجاد هذا التوفيق المنشود ، مادام الدين ظاهرةً اجتماعيةً كائنةً فعلاً وواجبةَ التقدير .

وقد كان شأنى شأن الجندى الجريء الذى يجد الصفوفَ قد افتقـدت الرائدَ فيتطوّع مندفعاً للقيام بهـذه المهمة التى ربما لم يكن كفؤاً لها ، ولـكنّ غيرته الفطرية تزجيه وشجاعته تسنده . وكنتُ أجدُ تشجيعاً غير قليل من أستاذى المرحوم السيد محمد رشيد رضا الذى كنتُ أكاتبه وأكاتب

مجلته (المنار) حتى إبّان إقامتى فى انجلترا . وكان هذا الإمامُ الجليلُ يشجعنى دائماً وإن خالفَ آرائى مرات ، ولكنه كان يُعنَى بجوهر سعيى للتوفيق الصحيح بين العلم والدين فى شجاعةٍ لا تنافى الرشدَ والاتزان .

وسأجعل حديثى الليلة متناولاً مسألةَ المسائل الدينية والصوفية ألا وهى : « عقيدة الألوهة » ، فأقول إنه لولا إيمانى بها لما تحمَّستُ متطوِّعاً هذه السنين الطويلة للاشادة بها وتفسيرها قدرَ طاقتى .

وتأذنون لى حضراتكم فى ذكر هذه الأبيات المعنونة « العطف الإلٰهى » من ديوان (الشفق الباكى) فهى من اعترافاتى الوجدانية الصريحة :

وأُحِسُّ أنّى فى اندماجٍ دائمٍ بالكونِ ، والكونُ العظيمُ حياتى
أتأمّلُ السّاعاتِ فى أجرامهِ وكأنّنى متأمّلٌ مِرآتى
وأنالُ عطفاً من جميلِ حَنانهِ يَسْرى الى رُوحى بغيرِ فواتِ
حِسٌّ خَفِىٌّ لستُ أُدرك كُنْهَهُ وكأنّما هو معجزُ الآياتِ
بلغَ الضميرَ ، وكان خيرَ مؤذّنٍ باللهِ فى مَلكوتهِ لحياتى

وهذا الإحساسُ هو من دوافع شغفى بعلم الفلك وتردّدى على المراصد ، لأنى أجد فى ذلك عبادةً صوفيةً واستغراقاً فى معانى الألوهة . ولولا هذا الاحساسُ لما تأمّلتُ وفسّرتُ ، فالشعورُ الدينى ليس عقلياً فحسب بل لابدّ له من استعداد وجدانى ، وهذا التأمل الصوفى هو ما نعته الغزالى بالنظر الى وجه الله .

***

إنّ فلسفةَ عقيدة الألوهة فى نظرى مَردُّها الى نتيجة إحساس الجزء بالكلّ ، وسامحونى على لغتى الصوفية فلن أجد غيرَها مُسْعِفاً فى هذا المقام .

واذا توسّعنا فى هذه النظرة فيُخيَّلُ الىَّ أن تمجيد الأبطال متفرّعٌ عنها أو هو صورة منها ، لأن البطولة شمولٌ وعظمةٌ بحيث أن البطل فى نظر مقدّريه ـ إن لم أقل عابديه ـ هو رمزٌ للقدرة الغلاّبة الفائقة ، وبعبارة أخرى أنه رمز الشمول . ولذلك نجد تمجيد الأبطال الوطنيين والدينيين وغيرهم يكاد

يبلغ عن غير وعى مرتبةَ التأليه ، خصوصاً اذا كان البطل ميتاً ، حتى ربط بعضُ الباحثين المتعمقين مثل جرانت ألن Grant Allen والاستاذ هالدين Prof. J. B. S. Haldane نشوء الآلهة عند الوثنيين وظهور القديسين عند غيرهم بعبادة الموتى . ومن العجيب أنَّ النفس البشرية شديدةُ الميل الى تقديس الموتى والانحراف بذلك انحرافاً عظيماً عن جادَّة التوحيد والمنطق السليم . وحتى فى ضوء الدين الاسلامى الذى يُعَدُّ المثلَ الأعلى فى صراحة التوحيد نزع الدهماءُ من المسلمين بالرغم من أصوله الصريحة الى تمجيد الأولياء تمجيداً يخالف روح الاسلام ، مما ألجأ المصلحين أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمراغى وسواهم الى محاربةِ هذه البِدَع التى تكاد تؤدّى الى الاشراك بالله .

من هذا أنتقلُ الى التنبيه الى أنَّ عقيدة الألوهة من الناحية الفلسفية العلمية هى ظاهرةٌ سيكولوجيةٌ ، هى إحساسُ الجزء بالكلّ ، وهى تتدرج تحت أسماء مختلفة من شعور الانسان نحو وطنه ونحو زعيمه ونحو الانسانية مثلاً الى شعوره نحو الكون بأسره ونحو الألوهة الشاملة والمُطْلَق .

وإذنْ فعقيدةُ الألوهة عند معتنقيها ليست وهماً حتى ولو كان تفسيرُها عند بعضهم وهماً ، فالإحساسُ بالألوهة قد يكون واحداً (وإن تدرَّج) عند أصحاب الديانات المختلفة من متمدينين وهمجيّين لأنها ظاهرة سيكولوجية متماثلة المنشأ ولكن تفسيرها يختلف بينهم جدَّ الاختلاف ولو كانوا جميعاً مخلصين فى إيمانهم .

يقول الاستاذ برنجل باتيسون Prof. Pringle-Pattison فى كتابه (فكرة الله فى ضوءِ الفلسفة الحديثة The Idea of God in the Light of Recent Philosophy) إنّ احساسنا بهذه الفكرة دليلٌ على وجود الله ، وهو يعتمد فى تدليله على ظهور الغرض فى النشوء . وفى رأيى العاجز أن هذا التدليل ليس قوياً وإن جاء من أستاذ الفلسفة فى جامعة إدنبره ، وكان الأوْلى به أن يقول إن الاحساس بالألوهة عند أغلبية الناس دليلٌ على فطرية هذا الاحساس وانه على تكيُّف هذا الاحساس تتكيَّف معانى الألوهة التى تختلف جدَّ الاختلاف حسب ثقافة الناس وطبائعهم ومؤهلاتهم وبيئاتهم .

وهذا الأستاذ سُورلى Prof. W. R. Sorley أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة كيمبردج يرى أن يقرن فكرة الأُلوهة بالمثاليَّة الخيريَّة للوجود (راجع كتابه Moral Values and the Idea of God القِيم الخُلقية وفكرة الله) كما أنَّ الاستاذ أ. ن. ألكسندر Prof. A. N. Alexander يرىٰ أن الألوهة هى مثاليةٌ سائرةٌ الى الكمال !

ومثل هذه النظرات الفكرية لمعانى الألوهة لا تتمشى مع معظم الديانات السائدة التى تنزه الله سبحانه وتعالى عن إيمان الاستاذ ألكسندر على الأقل ، ولكننا مع هذا ليس لنا أن ننكر أن إيمانه فى حدّ ذاته قد لا يقلّ فى حرارته عن إيمان مخالفيه .

* * *

إنّ ما يَعنينى من هذا الحديث هو أولاً التلخيص لأحدث الآراء الفلسفية اللاهوتية ثم التعليق عليها بآرائى الخاصة التى تؤيد أن الايمان بالله يتمشى مع العلم ، على اعتبار انه ليس سليل الوهم أو الجهل أو الفلسفة الخاطئة .

لهذا لن أذهب بعيداً الى فلسفة أرسطو وما بُنى عليها من التدليل على وجود الخالق فى عالم الكثلكة خاصةً ، فلن يقبل العلمُ ولا الفلسفةُ الحديثةُ شيئاً من ذلك . وحتى فى القرن السادس عشر لم تعدم انجلترا جمعيةً للعقليّين Rationalist Society بين أعضائها كرستوفر مارلو وولتر رالى ، وقد رفضت الترويج لتلك الآراء السطحية وإن اتّسمت بِسمَةِ الفلسفةِ ، وكان لدراسات جون لوك John Locke فى سنة ١٦٧٢ للذهن الانسانى ماقَضَى على الآراء القديمة اللاهوتية سواء استمدت فلسفتَها من أرسطو أو أفلاطون . وقد انتهت أبحاث لوك الى أنه لاتوجد فكرةٌ فى الذهن الانسانى إلاّ وكانت مكيّفةً من الرسائل التى تُدْلِى بها المشاعرُ الانسانيةُ . وجاء هيوم Hume فعزز اللاأدريين ثم جون ستيوارت مِلّ J. S. Mill فلم يحكم بالمعرفة الاّ للمشاعر وحدها ثم سبنسر Spencer فصرّح بأن القوة

الأساسية للعالم غير معروفة ولا يمكن معرفتها .

وقد أتحفت (لجنة التأليف والترجمة والنشر) قراءَ العربية بترجمة كتابين نفيسين أحدهما (عرض تاريخي للفلسفة والعلم) تأليف أ. وولف أستاذ المنطق بجامعة لندن ، والآخر (فلسفة المحدثين والمعاصرين) للمؤلف نفسه ، ففي وسع حضراتكم تصفحهما وتصفح أمثالهما للوقوف على تفصيل ما أُجمله في هذا المقام .

ومن الضروري الاشارة الى ظهور طائفة من الفلاسفة المؤمنين (theistic philosophers) بين الانجليز ، وهم تلامذة الفلاسفة الألمان أمثال كانت وفخت وشلنج وهيجل وشوبنهاور وهارتمان ولوتز ، ولكن آراءهم لم تصمدْ أمام التقدم الفلسفي العالمي وإنْ بقيتْ الآن بعضُ آراء لكانت وهيجل ولوتز في صورةٍ منوَّعةٍ . وأهمّ هؤلاء الأعلام بلا جدال هو كانت ، وقد كان — على حد تعبير الأستاذ وولف — شديدَ الاحترام للنتائج التي وصل اليها العلم الطبيعي ، بحيث لم يستطع رفضَ كلّ ماتذهب اليه تلك النتائج على الوجه الذي يدعو اليه مَذهبُ هيوم التشككي الذي كان يقول إنه كلّما تعمق فيما يسميه نفسَه تخبّط وتعثر في بعض الاحساسات ولم يستطع أن يقبض على نفسه أبداً ، وكان يعتبر كل مايبدو حقيقياً مجموعاً متعدّداً من التأثرات والآراء المتقطعة التي يُكسبها تداعي المعاني مَظهرَ الحوادث المتسلسلة ، ويخيّل لنا أنّ مادتها ثابتة تخطئنا في الظن بأن التأثرات المماثلة لتأثرات سابقة هي بعينها ، وكل مايوثَقُ به هو تيار التجارب المتغيّرة حتى الرياضيات نفسها ليست يقينية ، وأقصى ما يمكن افتراضه لشيء هو الاحتمال . كان الفلاسفة المؤمنون في العصور السابقة يعتزون في التدليل على الألوهة بالطبيعة نفسها وبمظاهر الدنيا في ذاتها ، فعندهم أن الأسباب الثانوية تدل على السبب الاول ، وأن النظام الكوني يدل على العقل الغير المحدود ، وأن الجمال في العالم يشير الى الروح الاعلى . ولكنّ كانت قضى على هذا الطراز من المنطق وأحلّ في موضعه طرازاً من التعليل العلمي مقسماً معارفنا جميعها الى موضوعية وذاتية في عناصرها .

وينوّه الأستاذ وولف بجدّةِ الطريقةِ التي اتّبعَها كانت دفاعاً عن العلم ،

وهى طريقة « التجريد » التى كانت تطوّراً بيّناً للمذاهب القديمة عن « الأفكار العامة » و « الحقائق الخالدة » و « الآراء المستكنة » ، فقد كان كانت يرى أنّ موضوعات العلم نتيجةٌ لعاملين : الأشياء المحسوسة وهى مستقلةٌ عن العقل ، وبعض صور وارتباطات يقدّمها العقل . وهذه الصور الآتية عن الالهام (كالزمان والمكان) والعلاقات والمقولات الفكرية (كالجوهر وعوارضه ، والعلة والأثر الخ) هى أولية سابقة ، من حيث أنها لاتكتسب بالتجربة إذ التجربة نفسها تستحيل بغيرها . ومن جهة أخرى نجد مادةَ الحسّ لاحقةً أى أنها تجىء فقط عن طريق التجربة وإنْ تكن لاتأتى على ماهى عليه بالفعل بل متغيرةً بالصور والمقولات السابقة . ولا تصل المعرفة البشرية الى حقيقة الأشياء نفسها بل الى مظاهرها ، واستخدام الصُّور والمقولات الأولية فى كل مايقع فى دائرة التجارب البشريّة حقٌّ مبرَّرٌ بل هو فى الواقع أمرٌ لامَفرَّ منه ، ولكنها يجب ألاَّ تُطبَّق على مايتجاوز تلك التجارب ، فالله والحياةُ الآخرة مثلاً أبعدُ من متناول التجارب الإنسانية ، وإذنْ فلا يمكن أن يكونا موضعاً للمناقشة ، فهما لايمكن إثباتُهما ولا نفيُهما ، ولا يمكن الايمان بهما على أنّهما من الاعتقادات التى تقوم على أسس نظرية بل على أسس عملية . وعلى هذه الاعتبارات العملية بنى كانتُ الاعتقادَ بوجود الله وحرية الاختيار والخلود . فهذه الاعتقادات مسلّمات تحتّمها أصولُ السلوك العملى المطلق ، كما أنّ الوجود الحقيقى لعالم الأشياء على صورةٍ ما من المسلّمات التى تحتّمها النتائج النظرية للعلم .

(عرض تاريخى للفلسفة والعلم — ص ٩٨ و ٩٩) .

ولكنّ هذا التدليل العملى الذى قدمه كانتُ لم يؤثر الاّ على قليلين لأن أساسه العلمى ضعيف ، بخلاف نقده للتعقّل الخالص pure reason فقد كان له أثر بليغ على الأفكار فى القرن التاسع عشر ، وهكذا اضمحلت آراؤُه كما اضمحلت آراءُ سابقيه ممن لم تصمد تعاليمُهم للتطوّر العلمى وحقائق البحث النفسانى .

ولا بدّ لنا من وقفةٍ أمام ألمعيّة الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel الذى تأثّر به أمثالُ بوزنكيت Bosanquet وكروتشى Croce ، فقد انتهى هيجل

من تأمّلاته الفلسفية الى أنّ العقل والطبيعة المادية هما « المطلقُ » بذاته لا مجرد مَظاهر أو دلائل على مطلق مجهول ، وفوق ذلك فليس العقل والمادة حقيقتين متميّزتين ، ولكنهما عنصران تتكوّن منهما عملية إفصاح المطلق عن نفسه ، وبعبارة أخرى أنّ الفكرَ والحقيقةَ شيءٌ واحدٌ ، وليس ثمة غيرُ حقيقة واحدة هي ما يدعوها « المطلق » ، وان هذه الحقيقة الروحية هي مرادف « الألوهة » .

ومع كل هذه التفاسير الفلسفية أخذ الشكُ أو الالحادُ يطّرد لأن المتعلمين لا يَعنيهم أقلُ من الايمان بأنّ خلفَ هندسة الوجود عقلاً إلهيّاً منظّماً ضابطاً ، وعلى وجه هذه الطبيعة المسحة الالهية البارّة ، فاذا لم يوقنوا بذلك انتفى إيمانُهم حتماً .

وازدادت العلومُ تقدُّماً فازداد الايمانُ تضاؤلاً بين المتعلّمين ، لأن التعليل العلمي للألوهة أخذ ينهزم ، واكتفى المتفلسفون بالكلام عن « الحاسّة الدينية » religious sense كبرهان وجداني على وجود الله ، وما يعنون بذلك الا مزج العاطفة بالعقيدة الموروثة ، وما كانت العاطفة في اعتبار السيكولوجيا برهاناً ايجابياً على وجود الشيء .

أمّا في أمريكا ففلاسفتُها الذين يُعنَونَ بالديانات يصرّحون إمّا بان العقيدة الالهية ليست عنصراً ضرورياً من الدين ، أو بتصويرها مطابقةً لمثاليةٍ أو لفكرةٍ مجرَّدةٍ أو لروح مبهمةٍ للعالم (يُراجع كتاب Contemporary American Philosophy الفلسفة الأمريكية المعاصرة في مجلّدين ، ومؤلفات جوزيف ماكّابي) . وأما في الفلسفة الانجليزية فلدينا الاستاذ تيلر Prof. Taylor يعلن بوضوحٍ أنّ الفلاسفةَ المتديّنين يرفضون الآنَ في جملتهم التعليلَ من نظام الوجود وجماله وقانونه وهندسته الطبيعية ويؤثرون الاهتمام بما ينعتونه « القِيَم » Values أو « المثاليات » Ideals معتبرين هذه القِيَم جوهرَ الأشياء ، قائلين إنّ العقل في حالةٍ خاصةٍ من حالاته أشبه بحالة الصوفيين (أي بنوعٍ من الكشفِ والشهودِ) يرى « الحقيقة » « والقِيَم » شيئاً واحداً . والاتجاه الفلسفي الحديث عند هؤلاء أميَلُ الى اعتبار « القِيَم العُليا » عينيّةً أكثر منها معاني نفسية أو عقلية ، ولو

أن الفلاسفة مختلفون فى تفسير معنى « العينية » التى توصف بها هذه « القِيَم » . وأما فكرة الألوهة الكلاسيكية فضائعة وسط هذا التفكير ضياعاً تاماً .

وهذا الأستاذ كار Prof. H.W. Carr فى كتابه (الأرضيّة المتغيِّرة للدين والأخلاق ـ Changing Backgrounds in Religion and Ethics) يدعى أن الرياضيين والطبيعيين ببحوثهم قد جعلوا من الصعب المزداد عُسراً تعيين مكان لله فى تنظيم الكون وهندسته ! أما الأستاذ برنجل پاتيسون Prof. A. S. Pringle-Pattison فقد أشرتُ الى وقوفه عكسَ هذا الموقف إذ يدلّل على وجود الله بمحض إحساسنا بفكرة وجوده ! وعندى أن كلاهما مخطىءٌ لأن أساس بحثهما فى ذلك وهمى على ما سأبيِّنه بعد .

وليس شكٌ فى أن عدد العلماء الذين يؤمنون بالألوهة العُرفية الآن أقلُّ من عددهم منذ ربع قرنٍ مَضى ، وليس بينهم أحدٌ من نوابغ العلماء المنتسبين للجيل الجديد مثل جوليان هكسلى Julian Huxley أو اينشتين Einstein ، فان هؤلاء ينظرون الى الألوهة نظرةً تصوّريةً مثاليةً تخالف العُرْفَ تمامَ المخالفة .

كذلك ليس شكٌ فى أن أنصار الفلسفة المادية لم يقلّوا فى هذا القرن عدداً عن أمثالهم فى القرن الماضى ، وما رأىُ هيكل Haeckel فى كتابه (لُغز الوجود The Riddle of the Universe) الذى عزّزه بخنر Büchner عن أن المادة والطاقة هما واجهتان للمجهول إلا مقدمة التنبؤ عن الحقائق الطبيعية التى كشفها القرنُ الحاضرُ والتى زادت الفلسفةَ المادية تمكيناً وإن لم تكن هذه الفلسفة مرتبطة بأية نظرية بالذات .

وكثيرون من هؤلاء الماديين يرون أن التفاعلات الكونية لا تُشعر بوجود إله على الاطلاق سواء من بداية السُّدُم الى نشوء الكواكب الى بلوغ الانسانية منزلتها الحاضرة الممتلئة بالتناقض والمفاسد كما يعتقد أولئك الماديون .

وقد نشأ عن سريان هذه الحركة قيام مثل الأستاذ هُفدنج Prof. Harold Hoffding (وهو فيلسوفٌ دنمركىٌ متشكّكٌ) بالدعوة منذ

ربع قرن الى الاهتمام « بالقِيَم » بدل « الحقائق » ، وبعبارة أخرى أنه يرى الاحتفاظ بالدين لصفاته الخلقية والعاطفية وبذلك وضع فكرة الله فى موضع ثانوى أو طرحها كاملةً . وقد أشرتُ الى قيام فكرة « المثالية » أو « التصوّرية » Idealism فى أمريكا مقام فكرة الله العُرفية . وعلى هذا النحو ينحو ولز H. G. Wells والأستاذ وُدْز Prof. R. S. Woods الذى يجهر بأنه يعدّ الألوهة مرادفة للروح الاجتماعى الممثّل «the personified social spirit» وهناك طائفةٌ من الفلاسفة المحدَثين أمثال الأستاذ أمِز Prof. Ames والاستاذ أوفرستريت Prof. Overstreet ترى أن الله هو صورةُ ملايين البشر ، وأنه كائنٌ حيٌّ يمثّل خيرَ ما فى البشرية . وعلى هذا القياس يمكننا بسهولة أن نوافق جوزيف ماكّابى على قوله إن ثمة ما لا يقلُّ عن عشرين إلـهاً مختلفاً للأديان الفلسفية ، كما أن ثمة نظير هذا العدد للأديان الأخرى !

وكما أنه لا يخطر فى بال أحد الآن فى البيئات الثقافية العالية أن يستدلّ على وجود الله من مجرد وجود النظام أو العدل أو الجمال فى الوجود ، فكذلك لا يحلم أحدٌ بهذا الاستدلال من مجرد الاحساس الدينى ، لأن العقيدة الدينية مغروسة بحكم البيئة والوراثة وتزيدها العواطف حرارةً وحماسةً . كذلك لا تحسُّ البيئاتُ العلمية بالحاجة الى العقيدة الالـهية ، وتؤمن بأنه لو أُغلقت أماكن العبادة عشر سنين مثلاً واختفى رجالُ الدين هذه المدة لما أحسَّ بذلك أحدٌ ، ولنشأ جيلٌ جديدٌ لا حاجة له بغير القوانين الحكيمة والنظم الاجتماعية المفيدة ، ولا همَّ له إلا نشر العدل والاخاء والسعادة بين الناس ، ولما فكّر أبداً فى معنى الله بل لاستغربَ لهذه الفكرة عندما تُعرَضُ عليه ... والواقع أنه حتى فى هذا الجيل تُثبت إحصائياتُ الكنائس أن ثلثى من ينتسبون الى المسيحية هم عملياً بعيدون عنها ولا صلة لهم بأية كنيسة ، ومع هذا لا يمكن مطلقاً لأىِّ بحّاثةٍ اجتماعىٍّ أن ينكر أن الانسانية الحاضرة ساميةٌ فى أخلاقها وإنْ كانت غيرَ متمسكة بأديانها الموروثة ، وإنما ينصبّ تمسّكها على الاستفادة من تجاريب الحياة التى تعتبرها مصدرَ إلهامها الوحيد الجدير بالاحترام .

يقول جوانز هوايت A. Gowans Whyte فى كتابه (ديانة العقل الحرّ —

The Religion of the Open Mind) إنّ الآداب جزءٌ صميمٌ من قصة النشوء ، حينما الديانة على العكس منشؤُها الخوفُ ، وقد وُلدتْ في بداية التنبّه الذاتي حينما بدأ الانسانُ يتحسّس كالأعمى في تيهٍ من الخرافةِ . وانّ الخوف من الخافي المجهول هو شعلةُ جميع الأديان ، فاذا ما طرح الانسان هذا الخوفَ جانباً فان ذهنه حتماً ينقى ... ومثلُ هذا الرأى نلمحهُ عند الأستاذ هالدين J. B. S. Haldane في كتابه (الحقيقة والعقيدة Fact and Faith) كما أنّ لألدوس هكسلي Aldous Huxley فصلاً بليغاً في كتابه (دراسات لائقة — Proper Studies) عن « أبدال الديانات » substitutes for religion أشار فيه الى انحطاط الدين في الغرب والى قيام حركات وطنية وسياسية واجتماعية وفنية وغيرها استوعبت اهتمامَ الناس الى حدٍّ كبيرٍ أو صغيرٍ واقترنت بشيء من الطقوس التي ألفوها في الحركات الدينية فأشبعت مشاعرهم بدرجات مختلفة ، فلا غرابة بعد ذلك اذا اشتدّ انصرافُ الناس في الغرب عن الديانات الموروثة وحتى عن العقيدة الالهيّة في ذاتها .

***

سادتي الأفاضل

لقد عرضتُ على حضراتكم إلمامةً عن اتجاه التفكير الحديث في الغرب بشأن عقيدة الألوهة . أمّا رأيي الشخصي في هذا الموضوع فقد أسلفتُه من قبل وإنْ يكن في إيجاز ، وقد نُشر في رسالةٍ لي بعنوان (مذهبي) .

ولمّا كنتُ عميقَ الايمان راسخ العقيدة فانّي بكلّ ارتياحٍ لبّيتُ دعوتكم للافاضة بهذا الحديث وزيادة البيان عن دخيلة نفسي ازاء هذه التيارات المتضاربة .

وأني أكرّر لحضراتكم أيها السادة أن الشعور بالألوهة في اعتباري ليس مسألةَ خوفٍ أو جهلٍ على ما يَرىَ بعضُ المفكرين الغربيين بل هي مسألة فطريةٌ سيكولوجيةٌ مَبعثها إحساسُ الجزء بالكلّ ، وهل نحن في المعنى التصوّفي الاّ أبناءُ الله ؟ ولولا هذا الاحساس لما قال الحلاّج كلمته المشهورة التي أودتْ بحياته ، لأن بيئته لم تفهمها فأساءت تأويلها وجنت عليه شرّ جناية .

أمّا عقيدة الألوهة الخاطئة فى بعض الأديان فقد تكون ناجمةً عن خوف أو جهل ، ولكن لا شأن لى بمثل ذلك ، إذ انّما أتكلم عن الاحساس الأصيل لا عن التقليد الموروث .

ويطيب لى تكرارُ الاشارة فى حديثى ومحاضراتى الفلسفية الدينية الى آية الكرسى المعدودة من جواهر القرآن الشريف ، فانّ هذه الآية الكريمة فى نظرى مفتاح التصوّف الاسلامى وباب الألوهة الحقة ، ولو أن الاسلام تقليدياً معدودٌ بمعزل عن التصوف . ولكن هذه الآية تملؤنى إحساساً بوحدة الوجود ، واعتقاداً تاماً بأن الاسلام لا يفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان ، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يتقشف ويتصوف معتزلاً فى جبل حرّاء عابداً الله فى ملكوته .

فعقيدة الألوهة فى ضوء الاسلام لاتخالف العلمَ السليمَ ولا الاحساسَ النفسانى النقى ، وهى بعيدة كل البعد عن الخوف أو الخرافة أو الجهل لأنها تقوم على ركنين أولهما الاحساس الصوفى الفطرى : إحساس الجزء بالكل ، وثانيهما وحدة الوجود التى تشعّ عليها آية الكرسى فتظهرها لنا بكل وضوح . ومن الآيات القرآنية التى ينبع منها التصوّف قوله تعالى : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » (سورة البقرة آية ١١٥) وقوله : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريبٌ أجيب دعوة الداعى اذا دعانى » (سورة البقرة آية ١٨٦) وقوله « الله نور السموات والأرض » (سورة النور آية ٣٥)

فهل لنا نحن المسلمين بعد ذلك أى حاجة بذلك النقاش البيزنطى بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السالفين وحصروا تفكيرهم فى نواحٍ بعينها ؟ ثم أليس فيما عرضه بعضهم من تفاسير مثالية ونحوها مايندمج فى الركنين السالفى الذكر ؟

إنّ تأملاتى ودراساتى الطويلة تجعلنى أعتقد أنه لايمكن التخلى فى النفس البشرية عن عقيدة الألوهة ، وإنما من الجائز تحويل هذه العقيدة وقتياً أو تعويضها (كما أشار الى ذلك ألدوس هكسلى) تحت تأثير الحيرة أو الضغط الاجتماعى أو نحوه . ولعلى بهذا البيان قد أقنعتُ حضراتكم أن الايمان الالهى لا يتعارض بأىّ حال وتفهُّم قوانين الحياة واستلهامها لخير

الانسان ، بل أرى أن الأسماء والصفات المنسوبة الى الله سبحانه وتعالى هى فى الواقع رموزٌ الى العوامل المختلفة التى أطلقها فى هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الأسباب والنتائج ، وكثيرٌ منها رموزٌ لا يجوز أن نُسيء تفسيرها . وظاهرة « النبوة » ذاتها خاضعة للحقائق العلمية النفسية كما أوضح ذلك فيلسوف الاسلام الفارابى .

ونحن إذ نبتهل الى الله سبحانه وتعالى وإذ نصلى يجب أن نعلم أن الله جلَّ شأنه ليس بحاجة الى شيء من ذلك ، فانَّ الزهوَ صفةٌ آدميةٌ وليس صفةً ربّانيةً ، وانما نحن المستفيدون من الابتهال والصلاة لأن فى ذلك تقويةً معنويّتنا وإشعاراً لنفوسنا بالواجب علينا . وقد تعالى الله عن أن يبدّل قوانين الوجود الدقيقة التى سنها لنظامه البديع إكراماً لخاطر أحدنا إذ معنى ذلك اضطراب الوجود بل خرابه ، وانما نتيجة الابتهال والصلاة تقويةُ احتمالنا وتهذيبُ مشاعرنا وشحذ تفكيرنا لما فيه الخير والصلاح حسب نواميس الوجود لا خلافاً لها . وحتى ما نسمّيه الحظ إنما يتبع قانون الأرجحية law of probability ، وكلما اتسع نطاقُ الكشفِ العلمى ازداد إيمانُنا بصيرةً بمعانى الألوهة السامية وبقوانين الحياة ونظام الوجود . كما أن الاشراق الصوفى و « لذة الأنس بالله » ليس خلفهما سوى التأمل الكونى العميق وإرهاف الاعصاب وتقوية الحدس ولا يمكن إدراك الله سبحانه وتعالى الاَّ بالحس الصوفى الذى يسنده العلم الفلسفى لا بالعلم ولا بالفلسفة وحدهما . وقد يساعد كل أولئك على قراءة الأفكار وتقدير العواقب لا على مجرد التنبؤ بالمستقبل والكشف والالهام مهما كان التوغل فى التأله .

كثيراً ما ذكرتُ فى أحاديثى الدينية أن الاسلام يعتمد أساسياً على التقوى والعلم ، واذا كان اخواننا اليهود بالرغم من روحهم المحافظة لم يتردّدوا فى تفسير التوراة تفسيراً علمياً ، فما أحرانا نحن بذلك وهذا كتابنا يوحى بالتفكير والتأمل فى كثير من آياته .

وهذا القرآن الشريف فى جميع أجزائه يتمشّى مع العلم الصحيح لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوى الألباب ، وإنّ فهمه العامةُ غالباً فهماً آخر بالنسبة لرموزه الدقيقة وذلك على قدر عقولهم . بل كذلك الكتاب المقدّس قابلٌ للتفسير العلمى الشامل وقد وُفّق الى ذلك علماء

الغرب اللاهوتيّون توفيقاً عظيماً ، فغيرُ معقول أن يكون القرآن الشريف دونه صلاحيةً لهذا التفسير الذى يجب أن يشمل كلَّ شىء من عرفان صفات الله تعالى الى جميع الشؤون الانسانية . والمعرفة الصحيحة تأتى عن طريق البحث العلمى والتذوق لفلسفة الدين لا عن طريق الإشراق وحده ولو كان صاحبه السهروردى . أقول هذا وأنا أعرف قدرَ التصوف كما أسلفت.

ليس الإحساس بوجود الله دليلاً على وجود الله كما يدَّعى الاستاذ برنجل باتيسون من ناحية المنطق ، كذلك ليس التدليلُ على أن لكلّ شىء صانعاً ما ينتهى بنا الى إثبات الخالق ، وإن توهَّم ذلك كثيرون من المعلّمين فى تآليفهم المدرسية المفسدة لأذهان التلاميذ إذ لا بدّ لهذا المنطق الغريب من أن يؤدّى الى سؤال كُفْرى عن الصانع نفسه ! ولا قيمة الآن لحجج أهل الظاهر الذين طالما ابتلى بهم وبجمودهم الحكماء والعلماء فى سالف العصور .

إنَّ صفات الله المكشوفة لنا ليست جميعَ صفاته تعالى بل لعلها لا تتعدى صفات العوامل الكونيّة الضابطة للوجود باعتبار هذا الوجود كائناً دورياً ، ومَظاهرُ الطبيعة جميعها وحقائقها متمشيةٌ مع تلك الصفات أو العوامل . والطريقُ العلميُّ الممهِّد لتعريف الألوهة هو الطريق السيكولوجى لأنه حقيقة واقعة فطرية ليست بأى حال نتيجة الوهم أو الجهل ، وأعنى به احساس الجزء بالكلّ واجتذابه اليه . ولعلّ هذه الظاهرة ، ظاهرة الاحساس بالألوهة ، هى التى أوحت الى الجنرال اسمطس General J. C. Smuts مذهب فلسفة « الكلّ » الذى يفسّر ما يسميه العلماء بالتطوّر الابداعى أو التطوّر الفجائى فى الوجود مما يتعارض مع نظرية الميكانيكية البحتة فى الطبيعة ، وعنده أن العالم بأسره مدفوعٌ بطبعه الى الانحراف عن الميكانيكية البحتة ، ومتجهٌ نحو تكوين « الكل » ، وهذا هو المثل الأعلى الذى يسعى العالم بأسره الى تحقيقه ، وبتحقيقه تتحقق منه غايته . واذا كان هذا الاتجاه نحو تكوين « الكل » أمراً مُشاهَداً ، فى جميع أنحاء الكون على اعتبار أن فى طبيعة الأشياء نزعة متّجهة على الدوام نحو تكوين هيئات منتظمة يسمَّى كلٌّ واحدةٍ منها « كلاً » ، فلعلّه مما يُقنعُ بعضَ الماديين بهذه الجاذبية الطبيعية التى أشرتُ اليها والتى أعدُّها رمزَ الاحساس بالالوهة

ولذة الأنس بالله التى لا تعادلها لذة ، كما يقول حجة الاسلام الغزالى بعد تصوّفه .

يقول شاعر أمريكا الفيلسوف ج . سنتيانا G. Santayana إن الدين قصةٌ خرافيةٌ ابتدعها الضمير ، ومع ذلك فهو فى الوقت ذاته صاحب فلسفة واقعية نقدية ، وقد أطلق على الصُّوَر الذهنية والأفكار وغير ذلك اسم « الماهيات » essences أو الجواهر . وعلى هذا فكل ما يصوره الحس من الصُّور المعهودة لنا وكل النظريات العلمية والمعتقدات الدينية إنما هو من هذا العالم ، عالم الجواهر . ويمكن اعتبار هذه الأشياء كلها — أى النظريات العلمية والمعتقدات الدينية الخ . — أساليب مختلفة ، وإنْ كانت غير متناقضة للتعبير عن حقيقة واحدة فوق طور الإدراك .

إنَّ معظم الذين حاولوا التوفيق بين العلم والدين قد فشلوا فشلاً ذريعاً لأنهم لجأوا الى أساليب تعسُّفية ، وقد حاولتُ أيها السادة فى هذا الحديث أن أبسط لحضراتكم مثالاً لما أرجو أن يكون توفيقاً ناجحاً فى مسألة المسائل الدينية والتصوفية متخذاً من علم السيكولوجيا مفتاحَ تفسيرى ، مبتعداً كلَّ الابتعاد عن تعقيد هذه القضية الوجدانية ، فلعلى أصبتُ بذلك وليس لامرىءٍ إلا ما نوى .

وأخيراً أشكرُ لحضراتكم رحابة صُدوركم وحُسْنَ استماعكم وهذه العناية الجدّية بالبحث والتأمّل ، فان كلَّ هذا يتفق وتقاليد الاسلام السمحة فى أنضر عصوره ، وما أولانا بهذه الصفات فى هذا العهد الجديد السعيد ، عهد الحرية والاستقلال والثقافة الذى سماه دولة الرئيس الجليل مستبشراً « عهد فاروق » .

